صدر عن (المدى):

في (سنة موت ريكاردو ريس) المخيلة تنتهك التاريخ

سعد محمد رحيم

> التاريخ في عرف الروائي ليس حقلاً مكتملاً، إنه مملوء بالفجوات والفراغات، ولا يخلو مما هو ملتبس وغير مؤكد ورجراج، وخادع ومعتم. وهذا على وجه التحديد هو ما يرغب فيه الروائي جاعلاً من التاريخ ميدان فعل للمخيلة حيث المصادفات والاحتمالات والافتراضات ممكنات إبداع وحكي ومسارات متشعبة لأحداث تتخذ شكلها، ومنطلقها الخاص. في رواية (سنة موت ريكاردو ريس)* لجوزيه ساراماغو، يقتنص الروائي كما فعل في روايات أخر مثل (الإنجيل يكتبه المسيح، حصار ليشبونة) بذرة الحكاية من التاريخ، وهذه المرة من التاريخ القريب، من غير أن يحمّل نفسه مسؤولية الدقة والموضوعية في نقل الواقعة التاريخية مثلما درج عليها المؤرخون التقليديون. فهو يكتب رواية، أي عمل تخييل قبل كل شيء، ولهذا ينبش في التاريخ ليشيد عالماً خاصاً، مفارقاً وموازياً في آن معاً، عالماً من الحيوات الحقيقية والخيالية، عالماً من الوقائع التي حدثت فعلاً، وأخرى ملفقة، وهدفه في النهاية، هي الفن.. متعة أن نمنح الخيال الحرية الكافية ليستفيض ويبدع، وأن تتكشف لنا جوانب من أعماق الحياة والتاريخ بوساطة الكتابة الحرة التي تخلص للفن لتعطينا معرفة بأنفسنا، وبروم الواقع والتاريخ.

يختلق الشاعر البرتغالي فرناندو بيسوا (١٨٨٨ . ١٩٣٥)، هو الحالم أن يكون بمفرده أدباً كاملاً، شخصيات أدبية عديدة، يمنح كلاً منها ترجمة حياة ونصوصاً، تصبح فيما بعد معروفة ومشهورة، وكأنها حقيقية قبل أن يتكشف السر، وهو أن هذه الشخصيات جميعها ما هي إلاّ قرائن متخيلة لشخصية واحدة حقيقية هي (فرناندو بيسوا)، وما عمله ساراماغو هو أنه أكمل اللعبة في واحدة من مساراتها المتنوعة، أو مع واحدة من هذه الشخصيات المختلقة (ريكاردو ريس) المولود في العام ١٨٨٧ والذي اختار البرازيل منفى له في العام ١٩١٩ وريكاردو ريس، كما هي حال بقية القرائن هو قناع لخالقه (بيسوا)، وفي هذه الرواية يكاد يكون أكثر من قناع.. هو الذات المستنسخة، أو ذلك الجزء من الذات الذي يرغب بالإفلات من مواضعات الواقع، فيكون حراً ليعمل ما يشاء، متجاوزاً كونه قناعاً أو محض صورة لبيسوا في المرآة.

يموت بيسوا في أواخر العام ١٩٣٥ وفي هذه الأثناء يكون ريكاردو ريس قد عاد إلى البرتغال، أي في الشهر عينه.. هذه هي نقلة ساراماغو الأولى، في مسعى لإعادة ترتيب ما بدأه بيسوا من انتهاك للتاريخ.. كان أداء بيسوا على مستوى الواقع، فيما كان أداء ساراماغو على مستوى النص الأدبي.. كلاهما استنجد بالمخيلة فابتدع الأول خدعته ليحقق هوى ذاتياً، أن يكون بمفرده أدباً كاملاً، واستثمر الثاني الخدعة ليكتب رواية. "أعتقد أني عدت لأنك مت، وبعد موتك كنت أنا الوحيد الذي يستطيع أن يملأ المكان الذي كنت تشغله، لا يمكن لأي حي أن يحل محل ميت. ليس أي منا حياً حقاً، ولا ميتاً حقاً. أحسنت القول، تستطيع أن تكتب حول ذلك قصيدة. ابتسم كلاهما...) ص..٩١ نعم، يستطيع ريكاردو ريس أن يكتب حول هذا الأمر قصيدة، لكن مهمة ساراماغو أعقد من ذلك وأصعب، وهي أن يمضي باللعبة إلى نهايتها، أن يكتب رواية.

(سنة موت ريكاردو ريس) هي رواية عن سر القرين، عن خلق القرائن، عن لعبة المرايا والأقنعة وتبادل الأدوار، عن الاختفاء والتجلي، وإلى حد كبير عن الحياة والموت. وهي رؤية شعرية حزينة، وأكاد أقول مكفهرة نوعاً ما، عن معنى العيش، ومحاولات التلاؤم مع المحيط الواسع والتاريخ، ومع الذات في تحولاتها.. باختصار هي تجسيد لإشكالية الهوية الذاتية، الهوية وهي تتشكل خفية بالتوازي مع مرور الأزمنة وصراع الإنسان من أجل أن يكون. والحوارات التي تجري بين ريكاردو ريس وبيسوا هي أقرب ما تكون للمونولوغ المتدفق.. مساءلة الذات، والبحث عن إجابات ممكنة عن معضلة الوجود، وموقع الأنا في العالم، وعن الحال والمصير، والحديث كله يضمر سخرية متكتمة، وحيرة وارتياباً ولا يقيناً. يتشكل النسيج السردي في هذه الرواية مثل حلم طويل.. ربما مثل استرسال دؤوب لحلم يقظة، والقرين (ريكاردو ريس) الذي أوجده (فرناندو بيسوا) سيحظى بحياة كاملة طيلة تسعة أشهر، بدءاً من وصوله إلى ليشبونة وتردد بيسوا (الميت) عليه في زيارات خاطفة، وحتى موته هو (ريكاردو ريس) في السنة الجديدة (١٩٣٦).. يقول بيسوا أن لديه تسعة أشهر بعد الموت، تماماً مثل عمر الجنين في الرحم قبل أن يستوي طفلاً، ويخرج إلى العالم، لكن مع موت بيسوا خالق قرائنه، ومنهم ريكاردو ريس يختار القرين الموت هو الآخر فليس لديه فرصة أخرى، إنه نتاج مخيلة بيسوا أولاً، ومع موت الأخير يأتي ساراماغو ليمنحهما تسعة أشهر مضافة، فكلاهما الآن (ريكاردوريس وبيسوا) نتاج مخيلة روائي يستمتع بالمضي قدماً مع لعبة الأقنعة والقرائن.

لماذا يقرر ريكاردو ريس أن يمضي مع بيسوا إلى عالم الموت؟. هل لأنه استنفد شرط وجوده مع موت خالقه/ مبتكره؟ هل لأن الأحداث راحت تأخذ حوله مساراً لم يعد يفهمه، أم لأنه استطاع أن يتنبأ مبكراً بالكارثة التي تلوح نذرها في أفق أوروبا كلها؟. هل لأنه فشل في حكاية حبه لميرساندا؟ أم لأنه، هو الشاعر، لم يعد لديه، ببساطة، بعد، ما يقوله؟.

إن ريكاردو ريس المتخيل (بفتح الياء) يتحرك على خلفية من وقائع خطيرة ترهص لمتغيرات ستؤثر في قدر أوروبا ومصيرها، فسنة ١٩٣٦ هي سنة صعود الفاشيات في أوروبا، سنة الحماس الوطني المتطرف، والأنظمة المعبأة بأحلام عسكرية كارثية (ألمانيا النازية، إيطاليا الفاشية، إسبانيا التي سيسيطر عليها العسكر بقيادة فرانكو بعد الإطاحة بالنظام اليساري الجمهوري، البرتغال التي يحكمها الديكتاتور سالازار بروح قومية فاشية هو الآخر) ناهيك عن الاتحاد السوفيتي الرازح تحت القبضة الحديدية لستالين. وهناك نذر الحرب التي ستندلع بعد سنوات ثلاث وتخرب أوروبا وأصقاع واسعة من العالم (الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩.١٩٤٥).

ربما لا يدرك ريكاردو ريس (الشاعر الغنائي والطبيب) بوضوح أنه صنيع نزوة شاعر آخر، لكنه يستشعر المديات القصية للعلاقة بينهما والتباس تلك العلاقة، حتى أنه يتساءل ويجيب "لو كان أحد ينظر إلينا، فمن سيرى، أنت أم أنا. إنه يراك، أنت، وبتعبير أدق، يرى شيئاً ليس أنت ولا أنا. المجموع الذي نمثله مقسوماً على اثنين. كلا، أقول بالأحرى أنه حاصل ضرب الواحد بالآخر. هذه العملية موجودة، لا يضاف فردان، مهما كانا، إلى بعضهما، إنهما يتضاعفان" ص,١٠٣

يصل ريكاردو ريس إلى ليشبونة من غير أن يكون في جعبته أو ذاكرته أي اسم أو عنوان لأي من أصدقاء قدماء أو معارف أو أقارب، ولا ندري على وجه الدقة لماذا غادر ريودو جانيرو وجاء إلى موطنه الأصلي.. يقول "عندما قررت أن أجيء إلى ليشبونة، كان يبدو لي أن لدي أسباباً ملحة، قضايا على أعلى درجة من الأهمية يجب أن أصفيها هنا، والآن" ص,١٤٨ لكنه لن يخبرنا عن تلك القضايا. وطوال الوقت لا يسأل عن أحد، وليست هناك من إشارة إلى أنه يعرف أي أحد، ويكون الشخص الوحيد من معارفه الذي سيتصل به هو فرناندو بيسوا خالقه، الميت الآن، والذي يقدم من عالم الأموات ليثرثرا بين الحين والحين لبعض الوقت.

إن جدل التغيير يمسك بمسارات الرواية، فلا ريكاردو ريس يشبه قرينه، ولا القرين (بيسوا)، الآن بعد موته، هو هو، فلكل فرادته وتميزه حتى عن قرينه "كل منا فريد ولا يمكن إبداله... حتى لو انبثق فرناندو بيسوا هنا في هذه اللحظة، وأنا أهبط شارع داليبرداد، فإنه لن يكون فرناندو بيسوا، ليس لأنه ميت، بل لأنه لن يستطيع أن يضيف شيئاً إلى ما كانه، إلى ما فعل، إلى ما عاشه وكتبه" ص,١٠٠

لن تخبرنا الرواية ورواتها عن علاقات ريكاردو ريس السابقة مع النساء.. إنه سيعرض أمامنا بلا ذاكرة حب، بلا حنين لأزمان وردية، وهو لن يستعيد أياً من تفاصيل تجربة ماضية بهذا الصدد، كما لو أنه عنصر خام لم يعجن قط في إناء من العشق والوله والحميمية. غير أنه ليس كذلك بالتأكيد. ودخوله السريع في علاقات قوية مع أول امرأتين سيقابلهما في البرتغال، وقد بلغ سن الكهولة، يشير إلى أننا إزاء شخصية تعرف كيف تستحوذ على اهتمام الجنس الآخر، فهو بعد لمسة عابرة، مقصودة لذراع ليديا، الخادمة في فندق براغانسا سيمهد لاستدراجها إلى فراشه في فاتحة علاقة ستستمر إلى ما بعد مغادرته الفندق وسكنه في شقة مؤجرة، فليديا هذه ستكرر زياراتها له، تنظف شقته، وتغسل ملابسه وتعد له طعامه وتنقل له أخبار العالم الخارجي، وتمنحه متعة الجسد إلى أن تحمل منه وتخبره بأنها ستحتفظ بالطفل. أما المرأة الثانية فهي مرساندا الشابة الصغيرة (هي في الثالثة والعشرين) ابنة الدكتور سامبايو/ مسجل العقود، مصابة بشلل لا يُعرف له سبب في ذراعها اليسرى، تأتي مع والدها مرة واحدة في الشهر لمراجعة طبيب في ليشبونة حيث الفندق ذاته الذي نزل فيه ريكاردو ريس.

نظرة أولى وتختلط مشاعر ريكاردو ريس، وربما مشاعرها هي كذلك، هي التي ستسرع إلى استشارته بشأن ذراعها المشلولة كونه طبيباً، وهذه ذريعة ليس إلاّ، فالعلاقة بينهما ستكتسي بطابع رومانسي على الرغم من فارق السن الكبير بينهما "ومن أجل أن تكون لقصة في هذه الشاعرية نهاية سعيدة، يتوصل، وهذه براعة عيادية حقيقية، إلى وضع باقة زهور في تجويف الذراع الأيسر لمرساندا التي تبقيه هكذا دون مساعدة، يمكن للمذبح وللقيم على مراسيم الزواج أن يختفيا، وللموسيقى أن تتوقف، وللمدعوين أن يطيروا على صورة غبار ودخان، ويستطيع الخطيب، وقد أنجز مهمته، أن ينسحب، لقد شفى الطبيب المرض، والباقي من شأن الشاعر" ص,١٧٧

ستظل مرساندا تراسله وتقابله حتى بعد مغادرته الفندق، بيد أن هذه العلاقة ستبقى عذرية، إلى حد بعيد.. سيتذوقان معاً حلاوة القبل من الفم، ولن يكون ثمة شيء آخر، أعمق من هذا على صعيد الجسد. إلا أن التعقيد سيكون سمة ما وراء ذلك، هي التي ستشعل خياله، وتسلب منه سلام روحه ليجد نفسه، هو الذي لا يؤمن بأية تعاليم أو طقوس دينية، يقوم بزيارة حج إلى مدينة (فاطمة) بعدما تخبره مرساندا أنها ستنصاع لرغبة أبيها وتذهب إلى تلك المدينة المقدسة طالما أن الطب فشل في معالجتها، وبحثاً عن معجزة لا تعتقد إطلاقاً أنها ستتحقق هناك. في هذه الآونة تكون هي قد أرسلت له خطاباً تنبئه فيه بأنها لن تراسله مرة أخرى، ولن تحاول رؤيته، غير أنها، كما تؤكد، لن تنساه أبداً.

لم يتبق لديه شيء.. حكاية حبه الضائع.. فشل التمرد الذي قاده البحارة ضد الحكومة، وكان من بين الضحايا شقيق ليديا.. لم يتبق شيء إذن وهو الذي لم يعد يأبه، "أخفى عينيه في تجويف ذراعه، وبكى حتى الثمالة، دموع لا معنى لها، هذا التمرد لم يكن تمرده، العاقل من يكتفي بالفرجة على العالم، يجب أن أكرر ذلك ألف مرة، ماذا يهم من لا يعود يهتم بشيء أن يخسر واحد ويربح الآخر" ص,٤٧١ إنه شاهد محض، شاهد سلبي، يكتفي بالتفرج ولا يتدخل، ويبدو أن هذه فكرة مركزية في الرواية، طالما أن الروائي يصدر بها كتابه مع مقولتين أخريين لفرناندو بيسوا، ولقرين آخر اسمه (برناردو سواريس) الذي يقول "اختيار عدم الفعل كان، دائماً، شاغل حياتي وهاجسها".

وفي زيارته الأخيرة سيخبره فرناندو بيسوا أن أشهره التسعة بعد الموت قد انتهت، وأنه لن يعاود المجيء، فيقرر ريكاردو ريس مرافقته.. هنا، لن تظهر على بيسوا سيماء المفاجأة أو الدهشة. لعلّه كان يعلم. وتبادلا حواراً قصيراً حول ليديا واصطحاب كتاب (إله المتاهة) وعدم إمكانية ارتداء قبعة في المكان الذي ينويان الذهاب إليه، مملكة الموت. "كانا على رصيف الحديقة، وكانا ينظران إلى أضواء النهر الشاحبة، إلى ظل الهضاب المهدد. قال فرناندو بيسوا، هل نذهب إذن، أجاب ريكاردو ريس، فلنذهب" ص,٤٧٥

وماذا عن كتاب(إله المتاهة) الذي ظل طوال الأشهر التي أمضاها في ليشبونة يقرأ فيه من غير أن يستطيع إكماله؟. ذلك الكتاب برمزية عنوانه والرموز والطلاسم التي يضمها، حتى أنه سيحمله معه إلى العالم الآخر على الرغم من ملاحظة بيسوا بأن الأموات، هناك، ليس بمقدورهم القراءة.. إنه منذ الآن، وهو لم يلج بعد ذلك العالم المفارق، يجد صعوبة في القراءة حين يفتح الكتاب. وبمعنى ما، فإن (سنة موت ريكاردو ريس) هي رواية عن المتاهة.. رواية متاهة.. رواية الدخول في المتاهة والوقوع في فخها.. رواية محاولة للخروج من المتاهة حيث لا منافذ مفتوحة في متناول المرء، لا التأمل، ولا كتابة الشعر، ولا التحدث مع القرين أو الثرثرة مع أشخاص عابرين، ولا تجربة الاستجواب في دائرة الأمن، ولا التجول على غير هدى، ولا العمل، ولا الحب، ولا ممارسة الجنس، ولا الحلم.. ولا دليل، ثمة، يمكن أن يعين بأي شكل.

سيغادر ريكاردو ريس الحياة بهدوء، من غير ندم، أو قنوط، وغير آسف حتى لكونه قد عاش.. إن رحيله المركّب يضعنا أمام مأزق الكائن، الكائن الذي هو من ابتكار مخيلة شاعر، والكائن الذي ينطوي على كائنات لا حصر لها، والذي كان حين يفكر ويحس يجهل من هو الذي يحس أو يفكر "أنا فقط مسرح الإحساس والتفكير" ص,٢٦

في أثناء قراءة هذه الرواية تحس انك إزاء تيار متدفق من الأحداث والأفكار والعوالم المتشكلة والأصوات التي تتداخل وتتقاطع (أصوات الشخصيات، صوت الراوي، صوت الراوي العليم، صوت الروائي نفسه) وأحياناً من دون أن تتبين الحدود، فلا فواصل نهائية باستثناء النقاط والفوارز التي لا تؤشر بشكل قار وحاسم متى يبدأ أي صوت بالتحدث، ومتى ينتهي. وإذا كانت الرواية مكتوبة بضمير الغائب فهي لا تخلو أيضاً من استخدام ضمير المتكلم في بعض الصفحات، كما أن الراوي العليم يتدخل أحياناً ليكشف لنا عن وجوده، وليعترف أحياناً، ولو من طرف خفي، بأنه لا يعرف كل شيء، وأنه مضطر ليتساءل ويواصل البحث.

أنا ... ورشدي العامل

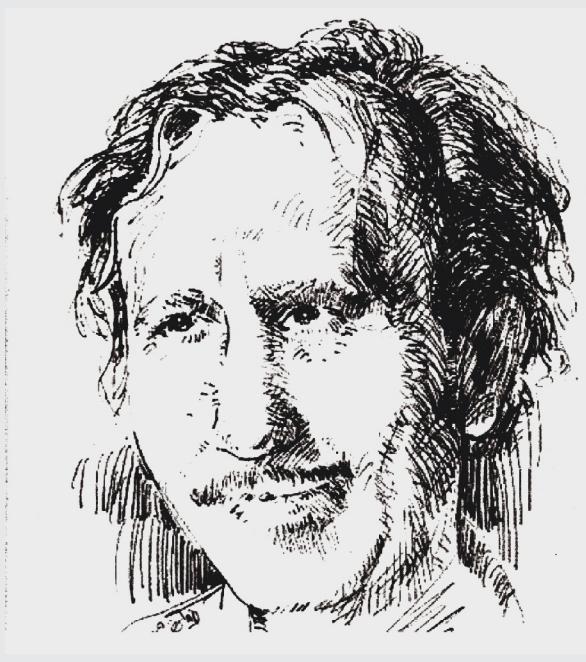

هادي الربيعي

في البدء لابد من ان اعترف بأن صحيفة المدى عودتنا على ارساء التقاليد الثقافية التي من شأنها ان تعيد الاعتبار الى المبدع العراقي وهذا ليس جديدا عليها فقد سبق لها وان اقامت فعاليات عملاقة لا تستطيع حتى وزارة الثقافة القيام بها

رشدي العامل جرح نازف آخر في ذاكرتي المخربة بالشهداء والأموات الذين يذكرونني دائما بأن ما تبقى ليس الا اقل القليل ولقائي برشدي العامل قد يعتمد على عنصر المصادفة ولكنني كنت ازوره في ايامه الأخيرة بشكل متقطع.

في آخر لقاء لي مع الشاعر المبدع رشدي العامل رأيته يبكي واطلق لواعج قلبه:

– أتصدق يا هادي انهم عرضوا علي طفلين كرديين مقابل خمسين دينارا فقط؟ تصور كل طفل بخمسة وعشرين دينارا، أهذا يعقل يا هادي الربيعي ايمكن ان يحدث هذا في هذا العالم ؟

كان رشدي في ذروة انهياره ولكن ما الذي اقوله وهو يعيش انهيارا كاملا ؟ كل ما كنت استطيع ان افعله هو ان احتضنه واربت على كتفه وانا اعلم ان الجرح اكبر من كل محاولاتي في التخفيف .. اجل في ظني ان رشدي العامل هو ضحية الأحساس العالي بكل ما يحيط به من احباطات وكوارث وسلوكيات لا تليق بالبشر رغم كل ما يبديه من ابتسامات متعبة في المهرجانات التي كان يحضرها بين الحين والآخر حيث كان يستمتع بالحضور ولقاء اصدقاء لا يلتقيهم عادة ومن وجهة نظري فان اكبر انجاز لأي مهرجان او تجمع ثقافي هو اتاحة فرصة غير عادية للألتقاء بين اصدقاء تعيقهم متاعب الحياة ومع ذلك لم يكن يحضر بدون الأستعانة بعصا يستعين بها في مسيره ويهش بها على البعض الآخر في مزاحه الأسود الساخن.

ربما انا اقل الأصدقاء لقاء برشدي العامل بحكم ظروف المحافظات المعروفة ولكنني حتى الآن لم افارق رشدي العامل في مخيلتي التي تحمله بمحبة غامرة ولدي ملف جمعت فيه عشرات القصائد التي كان ينشرها بين الحين والآخر وقد كتبت عن احد دواوينه بما اثار استحسانه وما زال هذا الملف من اغلى ما احتفظ به.

رشدي العامل موهبة متدفقة بالعطاء والأنثيال ولكنني كنت اقول له دائما ان هناك الكثير الذي ينبغي حذفه من القصائد لتظل مشعة اكثر وما زلت مؤمنا بأن رشدي كان يمكن ان يكون من اهم شعراء العالم فيما عرف فقط كي يزيح الأشواك التي كانت تزاحم ازهار قصائده المشعة فهو مغرم بالتفاصيل الكثيرة في قصيدته ولكنه مع ذلك ظل متألقا بحضوره الطاغي في الساحة الشعرية لسبب بسيط جدا لأنه شاعر حقيقي وأصيل وصادق مع عالمه الشعري الى ابعد الحدود.

الطفلان الكرديان اللذان خرجا من خسائر فادحة في كردستان بعد ارتكاب ابشع المجازر فيه يقفان بالتأكيد وراء موت رشدي المبكر ولكن ماحدث من كوارث اخرى جعلت المثقف العراقي يقع فريسة استهدافه المتواصل من قبل من كانوا يدجنون الثقافة العراقية لتسير باتجاه واحد فقط هو سبب آخر من اسباب رحيله الأبدي.

احاول ان امد يدي لأحتضن رشدي العامل بيدي اليمنى كما اعتدت ان افعل ذلك ولكن وجوها كثيرة لراحلين احبهم تتزاحم امام يدي فأقع في حيرة ان احتضن من ؟ فاتساءل هل كتب على العراق وهو مهد اروع الحضارات في التاريخ ان يكون مقبرة ابدية للمبدعين الذين عشقوه الى درجة الخيال ؟

الفن.. هذا الساحر الأسطوري العجيب!

محمد سعدون السباهي

الفن بمعناه العام، مجموعة من الأدب والموسيقى والرقص والغناء والمسرح والسينما والرسم، هو لا غيره الذي عمل على رفع الكائن البشري من الوضع البايلوجي الصرف، الى قمم الواقع الروحي الشفاف.

الموسيقى اوجدت البهجة فكسرت اكفهرار وجه الإنسان وجلافته، والرقص فرحة الحياة، وفق المفهوم النيتشوي، والشعر اوجد الحب الذي هو اسمى مخترعات الإنسان على الاطلاق، إذ خلق بدوره التقارب الحميمي بين الناس، متجاوزاً الاعراف الصارمة التي هي بمثابة الخطوط الحمر، في مفهوم الخطاب السياسي اليوم، حيث يدفع تجاوزها الى نشوب حرب، أو مجموعة حروب متوحشة. فشق الحب بذلك طرق: العطف والحنو والتضحية، ولعل هذه الاخيرة هي التي صعدت الروح، أول مرة في التاريخ الإنساني الى سموات فيروزية، لتوجد الانموذج العجيب الذي نخلع عليه تسميات باذخة مثل: السخي، الفارس، النبيل، فكما ان الفارس لا يمكن ان يكون من طباعه البخل والانانية، كذلك المبدع الاصيل لابد من ان تنطوي روحه على البذل والعطاء، والعكس صحيح تماماً.. ذلك ان الإنسان يميل في اعماقه التي مازالت لم تشذب بعد من ترسبات عصر البربرية، الى التشبث الاعمى بالحياة، والانانية المفرطة في أحيان كثيرة، كتلك التي وصفها (الحمداني) على نحو مخيف: إذا مت عطشاناً.... فما نزل القطر..

غير أننا نجد على الدوام، من يخرج على مفهوم القطيع، يتقدم طواعية، كاشفاً عن صدره، وهو يقود الجموع من اجل ان تكون أكثر كرامة في حياتها، واسمى قدراً مما هي عليه في واقع الحال.

يفعل ذلك على الرغم من ان ثمة قناعة تهتف في داخله: علك ستكون أول القتلى!! لكنه يواصل مسيره الى الامام، من دون ان يتوقف لحظة واحدة ليستمع الى الهاتف الرعديد، غير الانساني!

لقد كان أهلنا في العراق ومازالوا يربطون بين العاشق والفارس، بمعنى يستحيل ان يرقى المرء الى مرتبة العاشق أو المعشوق من دون ان يكون فارساً اولاً، بمعنى الفادي لروحه في أية لحظة من أجل قضية عادلة يتوقف على حسمها مستقبل اوسع الشرائح الاجتماعية، واذا لم يتحقق ذلك، فمن شأن الحب ان يتكفل المهمة! إذ ما ان تتطاير في جنبات قلب الإنسان شرارة الغرام، حتى نراه يتحول، بقدرة قادر الى فارس في طباعه واخلاقه وممارساته اليومية مع الناس، ومن وسمه حبٌ حقيقي بميسمه، يعرف ذلك ومازلت أتذكر كيف ان نساء قريتي (آل بوشامة) ٤٠ كم الى الجنوب من مدينة الناصرية، حين تداهم الحرائق خصوصاً في الصيف، أكواخهن البدائية المعمولة من القصب والبردي يقفن مزغردات، كاشفات عن ضفائرهن، يهتفن بالرجال: (إخوتي العشاق!) حيث يفعل المشهد فعله السحري، إذ يتحول الرجال الذين هم في معظمهم من الفلاحين والصيادين البسطاء، الى نمور غاضبة، يغطسون بكامل ملابسهم في النهر الذي يحيط بالقرية، ثم يهجمون على الاكواخ المشتعلة، يدخلونها بجسارة مدهشة لينقذوا ما يمكن انقاذه من متاع بسيط، أو اطفال حاصرتهم النيران...

الزغاريد، موسيقى، و (العبارة) شعر، والضفائر المكشوفة، رسالة أغواء، ومن الثلاثة يولد: العاشق الفارس، بمعنى الكائن الاكثر رقياً.. الكائن الفادي.

ومن خلال هذه الأوصاف والنعوت المشرقة، تكشفت أمام الملأ أضدادها على نحو صريح: المرابي، الجبان، الشرير، الوضيع، الطاغية.. الخ مما سهل على الاقوام تجنبها، فضلاً عن مجابهتها بطرق شتى، هي في جوهرها طرق فنية، بالمعنى الجمالي للكلمة، وذلك نظراً لما تمثله هذه الاوصاف الشنيعة من شتيمة لا ترقى الى قسوتها شتيمة أخرى، وانتقلت العدوى الى السياسي يأخذ بها حيث شحنت خطابه بنبرة أكثر أثارة مثل: الحرية، الديمقراطية، الاشتراكية، حقوق الإنسان، العدالة، الاخلاص، فأوجدت تلك الطرح بدورها تعاطف الشرائح الاجتماعية المتضررة على نحو مباشر، أو غير مباشر، فانفجرت من ثم الثورات الشعبية الكبرى في التاريخ المعاصر، في فرنسا، وروسيا، والصين، واسبانيا والعراق، وشتى بقاع العالم، ونحن هنا لسنا بصدد مناقشة كيف تسلل نفر ممن يفتقرون في دخيلتهم الى الخيال الخلاق والفروسية الى المراكز القيادية العليا، في تلك الثورات الباهرة، فعملوا بروح الفرد على تحطيم تلك الثورات أو انحرفوا بها الى غير مراميها الأساسية التي ارادها لها مفجروها الاوائل، مثلما وبالقدر ذاته لا نريد ان نخوض في مفاهيم (الفن الهادف) أو (الفن الملتزم) أو (الفن الجماهيري) بل الفن بمعناه الاشمل، الفن ذي المعطيات الخلاقة والمحرضة، الفن الذي يمكن ان نطلق عليه حسب تعبير آندريه مالرو (الشرط البشري) الفن الاكثر صدقاً في خطاب المعرفة، والذي من شأنه ان يحتفظ بقيمته الفنية عبر شتى أنواع الانظمة المتعاقبة كما يذهب الى ذلك (سارتر)، انما يهمنا التدليل على قيمة الفن، وقدراته الخارقة وشبه السحرية التي أثبتت بالتجربة والبرهان، انها وحدها القادرة على الانتقال بالكائن البشري من موقع السلب، الى موقع الايجاب الذي يليق بالانسان ككائن راقٍ قادر على تجاوز وضعه الخاص المنغلق الى وضع عام أكثر انفتاحاً، وذلك بسبب دعوات الفن التي لم تنقطع منذ بواكيره الأولى، وأخالها ستظل كذلك حتى فناء آخر إنسان على سطح هذا الكوكب، الذي اثخن، ولايزال المتوحشون بغض النظر عن أسمائهم وثقافتهم الظلامية جسده المقدس بالجراح النازفة في أكثر من مكان، ستظل الدعوات التي يطلقها الفن النبيل، تذكر الإنسان، من دون هوادة، بما يتوجب عليه عمله، من أجل منفعة الآخرين المشروعة، التي لو تحققت ستكون منفعة في آن معاً، سواء عبر خطاب ابداعي شفاف، أو آخر مشحون بالنبرة الساخرة المتهكمة، ومتوعدة ومنذرة أحياناً بالعواقب الوخيمة، والاخيرة موجهة الى نفر ضال لا يريد أن يرعوي، فقد أعمت بصره، وخربت بصيرته: وظيفة زائلة، أو رصيد منهوب، أو جاه اجتماعي مزيف، كل ذلك بسبب روح مجبولة من العفن، قادت خطواته الى طريق مسدود حتى وان ظل يجهل، أو يتجاهل ذلك.